علم الكلام وجذور فلسفة التاريخ
التمهيد لمفهوم(فلسفة تاريخ علم الكلام)

د.رحيم الساعدي

مقاربة أولية للتساؤل

يتزامن مصطلح فلسفة تاريخ علم الكلام او الدين واخر تناولته ليعبر عن تداخل العلوم وفلسفة التاريخ حمل عنوان (فلسفة تاريخ العلوم قراءة مستقبلية باتجاه نحت المصطلح والتخصص) وتضمن محاولة اكساء العلوم فلسفة التاريخ وتطبيقاتها وعدم الاقتصار على تاريخ فلسفة العلوم ([1]).

والقول بالتخصص في فلسفة تاريخ العلوم يعني إفراد التحليل والمعالجة الفلسفية وفق اولا العلوم كل وثانيا بشكل منفرد ، مثل القول بقراءة لفلسفة التاريخ الانثروبولوجي أو السيكولوجي أو فلسفة تاريخ اللغة والقانون والسياسة ...الخ . او بشكل تاسيس القواعد الاساسية لفلسفة تاريخ العلوم التي تتعامل مع المفهوم العلمي وتشعباته وتداخلاته ككل .

ولعل التغريب في هذا المصطلح يقودنا الى تجربته على مفهوم فلسفة تاريخ الدين او علم الكلام ،فيمكن التساؤل ، هل يصح اطلاق هذا اللفظ بتلك الصورة

---

[1] - دار في ذهني هذا السؤال (هل يمكننا تبني فهما لفلسفة تاريخ العلوم يتشابه وقواعد فلسفة التاريخ مثلا من زاوية القواعد والأسس الكلية العامة التي تعد أنموذجا يمكن السير على منواله ؟. وفي الحقيقة لا معلومة لدي من تداول او وجود هذا المصطلح وبعنوان يتصل بفلسفة تاريخ العلوم ، لمادة فلسفة التاريخ ، والعنوان كما هو ، ربما يشي بعدد من الأفكار أولها هو محاولة استبطان تاريخ العلوم أو لنقل عملية إعادة فرز وتحليل وتبويب ومقارنة تاريخ العلوم ، وبالتأكيد لا على أسس تاريخية فقط بقدر ما هي الأسس التي تتعامل مع التاريخ المفلسف أو التاريخ العلمي من زاوية ومنهج فلسفي يحمل :

اولا :السؤال بادوات السؤال

ثانيا :هو التجذير لمصطلح فلسفة تاريخ العلوم

ثالثا : تبني منهج التخصص في فهم فلسفة تواريخ العلوم .

الاصطلاحية المغرية والتي تدمج فهما لفلسفة التاريخ بآخر هو الدين او علم الكلام ، وقد نواجه بأكثر من إشكال او استفهام بهذا الصدد ، الا ان الغاية الاساسية من تناول هذه الموضوعات قد تتمثل بالتحرك لمقارنة وتحليل بعض العلوم او المواضيع الساكنة في الفكر الاسلامي ، واضافة او تعديل او دمج او مقارنة مفاهيم يعتقد بانها متباعدة .او يمكن ان تقودنا الى افكار ونتائج مختلفة .

يقول حسن حنفي متحدثا حول علوم الدين والكلام وتنوعات المصطلح ، ان الغرب ينتج العديد من المفاهيم في الوقت الذي لا نحفر في ثقافتنا ولا نحلل مرحلتنا التاريخية وقد قدم الغرب علوم بوليتكل ثيولوجي (علم اللاهوت السياسي) او السوسيولوجكل ثيولوجي (علم اللاهوت الاجتماعي) و ايكونوميك ثيولوجي (علم اللاهوت الاقتصادي) ([2])

لهذا يمكننا ان نعقد المقارنات والتحليلات الخاصة بعلم الكلام والتاريخ وفلسفة التاريخ بشكل عام لاستكشاف مدى التقارب او التباعد ولاضافة شيء من المغايرة والتنوع حول هذه المواضيع ، ولكي نمنهج أوراقنا فان لدينا ألان أكثر من فرض يمكن بناءه على الآتي :

التقريب بين علم الكلام و علم التاريخ .

ملاحظات فلسفية حول علم الكلام والتاريخ

الانطلاق الى افتراض ان احد الأسس المهمة لظهور فلسفة التاريخ انما هو علم الكلام

الدواعي الى الافتراض

قراءة التداخل بين علم الكلام وفلسفة التاريخ

الجبر والتخيير ومفهوم الامامة (عناصر تقود لفلسفة التاريخ)

---

[2] - حسن حنفي ومجموعة باحثين ، الاجتهاد الكلامي -مناهج ورؤى متنوعة في الكلام الجديد (ضمن قضايا إسلامية معاصرة) ،إعداد عبد الجبار الرفاعي ،دار الهادي ، بلا ، ص28. وأضاف د.حسن حنفي انه تقدم بمفهوم اسماه علم الاجتماع السياسي .

يقسم بعض الباحثين أطوار علم الكلام الى طور أول بدأ من الاختلاف على عثمان واستمر الى منتصف القرن الثاني الهجري والطور الثاني تمثل بمرحلة الكلام العلمي الميتافيزيقي والثالث مرحلة الكلام المختلط بالفلسفة اما الرابع فهو طور المختصرات والشروح من ابن خلدون الى محمد عبده (ت1905) ثم الكلام الجديد والذي بدا مع كتاب محمد اقبال صاحب مؤلف تجديد الفكر الديني في الإسلام عام 1930 والذي يتواصل الى يومنا هذا ([3]).

وفيما يخص علم الكلام الجديد فقد احاله الباحث عبد الجبار الرفاعي الى شراكة عامة لمفكرين مسلمين منهم وحيد الدين خان الباكستاني خليفة محمد اقبال الذي كتب دراسة (نحو علم كلام جديد في 1976م) وفهمي جدعان عام 1976 والمستشرق جيب الذي كتب اللاهوت المتحرر وايضا لدى محمد حسين الطباطبائي وتلميذه مرتضى مطهري ، واحال الرفاعي جذر الأصل ايضا كما صحيفة الوسط في مقال علم الكلام الجديد ووهم التأسيس الى الكاتب الهندي المسلم شبلي النعماني المتوفى سنة 1332هـ ، والذي ظهر في ايران عام 1950 مع ترجمة كتاب الشبلي ونشره ، ويقدم الرفاعي صورة لأسس علم الكلام الجديد تاطر بأسس منها :إحياء علم الكلام أو تأسيس المعتقد على العقل والعلم ، تجديد علم الكلام أو التأسيس الفلسفي لعلم الكلام ، محاولة التأسيس المنهجي لعلم الكلام والتمهيد لانبثاق سؤال لاهوتي جديد ([4]).

ان علم الكلام القديم الذي يوصف بانه الدفاع بقبالة هجوم فرقة أخرى ، يمكن مقارنته بعلم الكلام الجديد الذي يعد الدفاع احد أهدافه لا كل تلك الأهداف

---

[3]- محمد ابو هلال ، جدل السياسة والدين والمعرفة ، دار جداول ، بيروت ، 2011م ،ص35-40 .

[4] - عبد الجبار الرفاعي، مدخل تاريخي الى علم الكلام الجديد ،صحيفة المدى العراقية ،العدد 3221 ، 2014م. ايضا صحيفة الوسط البحرينية، العدد 98، 2002 . يشار الى انه ضمن مقاله مناهج ورؤى في الكلام الجديد يطرح حنفي رايه قائلا بان الكلام اقدم من الشبلي النعماني لانه لا يوجد شيء اسمه علم معياري نسقي نقيس عليه الاجتهادات الاخرى في علم الكلام . انظر الاجتهاد الكلامي ، المصدر السابق ، ص21 .

(مسالة أشبه بالتكنيك قبالة الإستراتيجية) وفي الوقت الذي يكون منهج الكلام القديم هو العقلي وأيضا النقلي ، يتبنى علم الكلام الجديد مناهج عديدة بالإضافة الى الأدلة التجريبية والتاريخية والشهودية ، و الكلام الجديد هو جزء من علم الدين الذي يرتبط بستة أجزاء منها علم نفس الدين – علم اجتماع الدين – تاريخ الأديان – علم الأديان المقارن – انثروبولوجيا الدين (علم إنسان الدين) – فلسفة الدين ([5]).

لا شك من ان تخصيصنا لعلم الكلام بنظرة شاملة واستعراض تقسيماته سينتهي بنا الى رحلة كلامية طويلة عاشت بتماس مع مفاهيم عديدة منها الله والإنسان والطبيعة والسياسة والدين والتاريخ ، والأطوار او التقسيم الكلامي لمراحل مختلفة يشير بحد ذاته الى تبويب يحمل في داخله جهد فكري منظم له تاريخ وقواعد بها حاجة لان تبحث على أساس انها فلسفة كلام او انها فلسفة تاريخ الكلام مع تكثيف البحث في الجانب التاريخي وتداخلاته .

وقد لا تجدي عملية جمع المتشابهات او المختلفات بين علم الكلام القديم والجديد ولكن المهم في الموضوع اننا لا يمكننا استثناء الكلام القديم من زوايا الاراء والافكار والفرق المناقشة وما خلفته هذه الحركة وذلك التوجيه وهو بحد ذاته يعد الموضوع الذي يمهد للتساؤل بالادوات الفلسفية التي تمثل فلسفة تاريخ الكلام .

بين التاريخ وعلم الكلام

للتواصل بين التاريخ والكلام مناشئ عدة أهمها وجود مساحات مشتركة بين العلمين او قل وجود مسائل تاريخية في علم الكلام هذا اذا لم ندع وجود مسائل كلامية في التاريخ ، فالإمامة والنبوة مسالتان كلاميتان لهما طابع تاريخي ([6]). وبغية تقريب ما بعد الفهم التاريخي في علم الكلام واقصد به فلسفة التاريخ ومدى التداخل بينهما ، سنمر على تواشج للتاريخ بعلم الكلام اولا، وهو موضوع تطرقت اليه

[5] - مهدي ملكيان ، الكلام الجديد في ايران ، ضمن الاجتهاد الكلامي، المصدر السابق .

[6] - د.حسن سلهب ، علم الكلام والتاريخ – إشكالية العقيدة في الكتابة التاريخية الإسلامية ، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي ، ط1،بيروت،2011م، ص9.

الابحاث كما تطرقت الى علاقاته وتداخلاته او لنقل بانها سلطت الضوء على الجانب الاجتماعي الذي عاش فيه علم الكلام كما في كتابات جوزيف فان اس ([7]).

ومن الاسئلة التي تدفع في محاولة فهم متنوع لتفاصيل علم الكلام مع علم التاريخ هو كيف نظر المتكلمون الى تاريخ خصومهم فرقا كانوا ام افرادا مذاهب كانوا ام اعلاما ؟ وما هي قيمة الاخبار في دائرة التوظيف الكلامي دفاعا ومناصرة ونقدا ومواجهة ([8]). وهل استطاع التاريخ التاثير على علم الكلام ام العكس ، ثم هل تدرجت العقائد او القضايا الاساسية في علم الكلام وفق متغيرات تاريخية وبتاثير متغيرات سياسية واجتماعية اسلامية وهل وصف المتكلم الاسلامي بانه مؤرخ اولا ام مفكر ام عالم دين ،ويضاف لذلك هل ساعد المؤرخ الاسلامي وفق نقل وشرح وتحليل او وفق الانحياز والسؤال والمقارنة على تسهيل مهمة فيلسوف التاريخ للتنظير ومقارنة الاختلافات والتنوعات المجتمعية والدينية والسياسة. والحقيقة ان علم التاريخ هو علم التدوين قديما مثلما دون الحديث والقران والطبري كان مؤرخا ومفسرا والمؤرخون هم اوائل المفسرين ([9]) . فتداخل عمل المؤرخ مع علم الكلام ورجالاته ، ووثق علم الكلام ايضا تاريخ افكاره ورجالاته . وهو ايضا يرتبط بكبار المهتمين والباحثين في المسائل العقائدية والكلامية والعكس صحيح ، كما ان هناك من ارخ لمن كتب في السياسة والدين والفلسفة والفقه ومنهم من كتب في الاداب السلطانية كما هو الحال مع سهل بن هارون (ت 215هـ) بكتابه تدبير الممالك والسياسة ، الجاحظ (255هـ)في التاج في اخلاق الملوك ، ابو زيد البلخي

---

[7] - حول هذا الموضوع ينظر ، جوزيف فان اس ، علم الكلام والمجتمع في القرنيين الثاني والثالث للهجرة ،ط1، الجزء الاول ، ترجمة د.سالمة صالح ، منشورات الجمل ، بيروت ، 2008. وفي الكتاب بعامة حديث عن معايشة للجانب الاجتماعي في علم الكلام والذي لا يخلو من تحليل لتداخل سياسي مع الافكار والاراء الكلامية .

[8] - حسن سلهب ، علم الكلام والتاريخ ، المصدر السابق، ص22 .

[9] - د.حسن حنفي ، الهرمنيوطيقا والتاويل ، المصدر السابق،ص335.

(ت322هـ) بكتابيه السياسة الصغير والكبير وابو الحسن الماوردي (450هـ)في الاحكام السلطانية والولايات الدينية والغزالي في التبر المسبوك في سياسة الملوك وابو بكر الطرطوشي (ت520هـ) في سراج الملوك والجويني (642هـ)في كتابه السياسة الملوكية وسبط بن الجوزي(654هـ) في كنز الملوك وابن الطقطقى في كتابه الفخري في الاداب السلطانية ([10]). وكل هؤلاء لا يبتعدون عن دائرة الكلام تنظيرا او تاريخا او انتماءا .

ملاحظات فلسفية حول علم الكلام والتاريخ

ربما يصح القول ان الامة الاسلامية تعي في وقتها الانقسامات التي حدثت لها والتي توسعت بفعل عوامل مختلفة داخلية وخارجية وعلم الكلام من جهته نظر بشكل فلسفي ونفسي وسياسي وتاريخي لهذه القضية والتي تعد شديدة الصعوبة ، واقصد بها الحديث عن فعل الانسان ومرجعيته وارتباطه بالله ام بذات الانسان ومحاولة تحليل بواطن واصول السلوك الانساني . وهذا يعني ان الطبقة المفكرة او المثقفة (من الفرق او المثقفين او المهتمين بالتاريخ و بالدين بل والسياسين) على حد سواء ارخت تلك الانقسامات بتدوين المناظرات واقامتها وسعت بشكل عقلي وجاد لتثبيت الاراء التي تؤمن بها كل فرقة وبالتالي فان الصراع شهد صنعة فكرية مكثفة ، وهناك مجموعة من الافكار التي تفسر موضوعة العلاقة بين علم الكلام والتاريخ وهي :

ما يميز تاثير الكلام في الكتابة التاريخية الاسلامية دون سواه امران هما (الثبات والعمق) فالمصالح السياسية والمعايير الثقافية تتبدل وتتغير وكذلك الظواهر الاجتماعية الا ان المقولات الكلامية ثابتة ([11]) . وكانها من سنن التاريخ الثابتة

---

[10] - وجيه كوثراني ،تاريخ التأريخ اتجاهات - مدارس - مناهج،المركز العربي للابحاث والدراسات السياسية، بيروت ، 2012 ، ص77.

[11] - حسن سلهب ، علم الكلام والتاريخ ،ص72.

ويبدو ان جزء من علاج مشكلة الكلام الاسلامية هو تسليط منهج فلسفة التاريخ نحو القضايا الكلامية

لم تؤلف الكتابة التاريخية العربية منذ أوائل القرن الثالث للهجرة وحتى الجبرتي في أواخر القرن الثامن عشر والتاسع عشر علمًا قائمًا بذاته، كما لم تؤلف مؤسسة مدرسية قائمة بذاتها لها متخصصوها ومدارسها وقواعدها، كما كان شأن الحديث والفقه في المدارس الدينية، وكما سميت في عصر السلاجقة المدارس النظامية نسبة إلى نظام الملك ([12]).

لقد اسس المتكلم الباقلاني (ت403هـ) نظريا لمفهوم الخبر الذي قسمه الى ثلاثة اقسام هو خبر عن واجب وخبر عن محال وخبر عن ممكن ، والفارق بين الخبر والحدث التاريخي ان الاول ينطوي على جزء اساسي من اللوحة العامة ، في حين اعلام الكلام وقعوا بوهم اعتماد اجزاء من التاريخ وفصلها عن ظروفها وبيئتها قبل النظر بصدقها وكذبها ليتم الاستفادة منها ([13]).

اشار حسن حنفي الى ان النص الفلسفي او الفقهي او الكلامي يعد استجابة لظروف تاريخية فعلم الكلام نشا للدفاع عن العقيدة ضد البدع فالنص التراثي هو نص تاريخي ، ويتسائل لماذا ارسل الوحي على فترات فهل يعني ذلك ان نص الوحي من صنع التاريخ ، كلا ، ولكن يعني ان الوحي واكب التاريخ (وليس من صنع التاريخ)، أي انه اخذ تطور الوعي الإنساني بعين الاعتبار([14]) ولا يخفى ان

---

[12] - وجيه كوثراني ،تاريخ التأريخ اتجاهات – مدارس – مناهج، 2012 ، ص45 .

[13] - حسن سلهب ، علم الكلام والتاريخ ،ص77 . وهناك ملاحظة لوجيه كوثراني تشير الىان القواعد المنهجية التي اوجدتها المنهجية التاريخية تشبه فعلا القواعد التي اوجدها علم الحديث الاسلامي ثم علم اصول الفقه من ناحية الاهتمام بنقد الوثيقة من جهة المؤرخين الوضعانيين ولناحية الاهتمام بنقد الرواية (التعديل والتجريح) من جهة المحدثين المسلمين حول هذا الموضوع ينظروجيه كوثراني ، تاريخ التاريخ (اتجاهات –مدارس- مناهج)، ص120 .

[14] - د.حسن حنفي ، الاجتهاد الكلامي – مناهج ورؤى متنوعة في الكلام الجديد ، ص52.

هناك تحد واستجابة بين الفرق تركت اثرا على انتماءات بعض الفرق تجاه الاخرى وايضا على القواعد الشعبية التي تمثلها تلك الفرق .

ان تعارض الاراء فعل فعله في الفرق والنحل فغدا الايمان بمعارف الهية بطريقة ما مؤثرا في عملية التاريخ من زاوية غير مباشرة ، ويمكن القول ان موضوع الامامة شكل مسوغا وبابا واسعا للمتكلمين للدخول في التاريخ وبالتالي ممارسة دور الهيمنة على مواده ([15]). وهو ما سوف نتطرق اليه فيما بعد ، مع ان العقل الإسلامي او عقل المفكر الاسلامي في وقتها انصب على تحد يتعلق بداخل الانسان اولا وتمثل بمحاولة معرفة مصير وماهية فعل الذات وارتباطها بفعل الخالق وتاثير ذلك .

وحده ابن خلدون ضمن مقدمة تاريخه فلسفة تاريخ هي طبائع العمران وتطور الاجتماع البشري ، اما الكتّاب المحسوبون على علم التاريخ من محدثين واخباريين ونسابيين ومؤرخين فانهم اقتربوا من الفلسفة من زاويتين الاولى من المنطق أي البحث عن المنهج والطريقة في استنباط قواعد في نقد الرواية والوثيقة (قاعدة التعديل والتجريح والاسناد) والثانية من زاوية التاريخ لاراء الفرق والمذاهب والاديان ، ومن الكتب المهمة هنا كتاب المطهر المقدسي البدء والتاريخ (355هـ)وايضا الخوارزمي في مفاتيح العلوم ومحاولة اخوان الصفا في رسائلهم وفخر الدين الرازي في جامع العلوم الذي بحث فيه مكانة التاريخ وجعله خادما للدين ، وايضا نجد هذا المنحى عند المسعودي في عرض معلومات الالهيات والمنطق والطبيعيات وعلم الكلام كما نجده عند مسكويه في تجارب الامم والشهرستاني في الملل والنحل ، ولقد دعى ابن خلدون لاستقلال علم التاريخ عن العلوم الشرعية (الحديث والفقه) وعلى استنباط قوانيين للتطور التاريخي وهي افكار نتجت عن ركام هائل من الكتابة التاريخية السابقة ([16]).

---

[15] - د.حسن سلهب ، المصدر السابق ، ص40 .

[16] - وجيه كوثراني ، المصدر السابق ، ص73-75 ومثال ذلك التراكم ما قاله الباحث حسن سلهب ان تجربة التاريخ للاعلام في الكتابة التاريخية للاسلام نمت وتطورت بشكل لا مثيل له مقارنة بكل التجارب

اشار ابن خلدون في مقدمته الى موضوع التشيعات للآراء والمذاهب واعتبر ذلك موردا من موارد اخطاء المؤرخين ومغالطاتهم ،واتهم اهل الملل والنحل بانهم في وضع لا يسمح لهم بالتمحيص والنظر وانهم يتقبلون الاخبار لمجرد توافقها مع قناعاتهم ولقد حاول الكافيجي (ت879هـ) في كتابه مختصر التاريخ الاهتمام بالعلاقة بين علم الكلام والتاريخ ولكن من زاوية تحديد دور التاريخ في موضوعات علم الكلام ، كما كرس السخاوي (ت902هـ) القواعد الفقهية في الجرح والتعديل ومنها صلاحية التصرف في المادة التاريخية من دون ان يحدد فاصلا بين الفقه والتاريخ واذا كان ثمة دور مؤثر لعلم التاريخ في الفقهيات فهو دور البحث عن رجال الحديث والفحص عن احوالهم ، لكن السخاوي لم يرى غاية لعلم التاريخ الاسلامي تتجاوز خدمة الدين بصورة مباشرة ([17]). وتبدو اهمية هذه النقطة بوصفها لعمل العاملين بعلم الكلام وفق انشغالهم بذواتهم والامر يتطلب منهجا عاما .

يورد سلهب راي هاملتون جب بان دراسة التاريخ شكلت امتدادا ميدانيا لدراسة الوحي الالهي في القران والحديث .اما فرانز روزنثال فقد اكتشف العلاقة بين دور علم الكلام في التاريخ وظهور اعمال التراجم ويحلل ذلك عبر اعتبار الفضائل او العيوب الشخصية مادة النزاع الاساسية بين الفرق الاسلامية ، فقدم العلماء اطارا مرجعيا للشخصيات التاريخية فاعطو المؤرخين استثمار عمل مفيد وعملي في المجتمع الاسلامي ([18]).

بين علم الكلام وفلسفة التاريخ

يتبادر الى الذهن أحيانا ما هي المشتركات بين كل من علم الكلام وفلسفة التاريخ ، وهل يمكن القول بتقاطعهما ؟ ربما لا يبدو في ظاهر الأمر ملمح تقارب ،

الاخرى بما فيها التاريخ للفرق والاحداث والوقائع العامة . انظر حسن سلهب ، علم الكلام والتاريخ ، ص348 .

-[17] حسن سلهب ، علم الكلام والتاريخ ، المصدر السابق ، ص49-55

[18] - حسن سلهب ، علم الكلام والتاريخ ، ص61-62.

ولكن الإمعان في الامر يقودنا الى تفاصيل ومقاربات مختلفة ، وفي الطرف الاخر من التساؤل ربما امكننا افتراض فلسفة تاريخ لعلم الكلام ، والإجابة على هذا السؤال تعتمد على الجدوى من طرح هذه الآراء وعلى استدراج المعاني التاريخية المرتبطة بالكلام (وهذا ما تحدثنا عنه مسبقا) والمتداخلة مع بعضها البعض واذا أردنا فلسفة تاريخ لعلم الكلام كما نطمح لفلسفة تاريخ لبقية العلوم فيتوجب الفهم ان علم الكلام ايضا هو (فلسفة تاريخ الدين) او هكذا يمكننا ان نطلق عليه (او يتوجب) ، ومع هذا فالحديث عن المفهوم الأول يعني اننا نتعامل مع سلسلة من الأفكار أهمها :

أولا: ان ادخال علم الكلام الى دائرة فلسفة التاريخ يعني قراءة سير الافكار ومناقشتها واعادة تقيمها وتحليلها وفق المناهج الحديثة ووفق كونها مادة قابلة للتحليل والاستفسار وتسليط ادوات السؤال الفلسفية عليها (وهو العملية الاهم والاكثر صميمية ، ومثال ذلك ، ان الحديث عن القانون مثلا ليس فلسفيا ولا نطلق عليه فلسفة قانون او سياسة او دين ما لم نتدخل ادوات السؤال الفلسفي والتحليل والفتح منافذ الاسئلة ، وهكذا يمكننا ان نحول الكلام الاسلامي الى مادة اسئلة لقراءة تاريخيتها ، فالذين يريدون قطع الصلة مع التراث والاتجاه الى علم كلام جديد انما (يريدون ان يخفوا الملابس والحاجات القديمة في صناديق حديثة) وكان بالامكان إعادة تاهيل تلك الحاجات او الافكار (بصورة دقيقة) بفلسفتها تاريخيا، او فلسفة تاريخها ، او ارخنتها فلسفيا وحلحلتها اما احالتها الى التاجيل والاهمال فهو سلوك يضيع الوقت ولا يحل القضية .

ثانيا : ربما يعد علم الكلام الجديد بمثابة فلسفة جديدة لتاريخ علم الكلام او فلسفة تاريخ الدين او هو اعادة تلميع الكلام الإسلامي ، ومع عدم ايماني الكامل بضرورة اعادة نشر الكلام الاسلامي من جديد اذا كان يتحرك بدافعية الفكر البلورالي ([19])

[19] - وجهت نقدا الى الفكر التعددي البلورالي ومنه بعض الاسئلة التي تحاول معرفة ،هل يريد هذا الفكر ان يفسر النص الديني بمجمله على أساس انه نسبي . الجواب سيكون انه يجب عليه ان لا يجزم - بحسب العلم وتطوره ونسبية العلم اليوم - بعدم وجود الإطلاق والمطلقية في النص .

الا انه يمكننا ان نمنهج عملنا باعتماد طريقة نبتعد فيها عن الخلافيات ونتسائل من خلالها عن الجدوى من هذه البحوث ونتلافى الاخطاء التاريخية لبناء (الصح) من هذه الافكار وايقاف (الخطا) ، فالعملية تشابه تلافي اخطاء الدولة في فلسفة التاريخ وعلينا تلافي ضياع الكثير من الوقت التاريخي في علم الكلام والذي جر الى احتقان المجتمعات وركودها الا من زاوية الصراع .

ثالثا : الصراع في علم الكلام سار بطريقة ربما تتشابه في الحضارات فدورانية التاريخ والحضارة تقابلها دورانية المشكلة في علم الكلام ولكن لماذا ؟ لان الفعل الانساني التاريخي وربما الغرائزي واحد ، واحيانا يكون الصراع جماعيا ، فالمحرك في فلسفة التاريخ هو المفرد او البطل و المنظر والمتفاعل هم الجماعة وهكذا في علم الكلام يبرز المحرك هو المنظر او المفكر والمتفاعلين هم الجماعة التابعة للمنظر او يكون المحرك هو الفكرة او الحركة السياسية او الدينية ، وبشكل عام فان الصراع سنة ثابتة في كل من الجدل الكلامي للشعوب الإسلامية وفي فلسفة التاريخ ايضا ، والسبب ربما واحد ، لان هناك ما يشبه سيطرة البعض على الاخر بطريقة او باخرى فيحدث

ايضا هل يعتقد الفرد -أي فرد- مع وجود نمط لا متناهي من المعارف ، بان لديه المعرفة الكافية لفهم خارطة الدين والنص الديني . الجواب ان النسبية التي ينادي بها أصحاب التعددية سوف لا تقدم حلا ناجحا يتوافق مع الامتداد اللامتناهي للأفكار والعلوم والمعارف ، وايضا لماذا الحديث عن الدين في منهجية التعددية ، هل هي الدعوة إلى دين عالمي أم إلى تغليب دين على دين أم نقل أخطاء دين (ما) وقياسها على دين آخر أم تحطيم المرتكزات الأساسية والثوابت الخاصة بالدين الإسلامي .

ثم هل نحن بحاجة إلى تحريك بحار الدين ، وما الأهداف التي سنحصل عليها ، والجواب ان ما نحصل عليه هو تشغيل اسطوانة قديمة لا يعتقد الفكر الغربي (ذاته) بأهميتها وهي الاسطوانة الكلامية التي غالبا ما يحركها وفقا لمحاولة الإسلام الالتفات إلى الاكثر اهمية من المعارف أو الالتحاق بالأفكار الحديثة على الساحة العالمية ، فلماذا لا تأخذ هذه الأفكار الحيز المماثل في الفكر الغربي ؟ الجواب أيضا لأنها قضية دورانية يكون القصد منها التشكيك الذي يتبناه من يفتقر إلى نموذج مفيد آخر للتطور ومناقشة أفكار مختلفة ، والغرب يمتهن التطبيق والعمل ، وهو لا يقف طويلا ليحلل القضايا الدينية أو انه لا يؤمن بمطلقية النص الديني ، وهو يعلم تمام ان المدخل لتبديل افهام المسلمين هو تبديل الثابت الذي يعارض الكثير من اهدافه .وانشغالهم بما يتلائم وميولهم الجدلية .

وعلى هذا الاساس ألا يوحي مفهوم علم الكلام الجديد بهذه الصورة بأنه تحريك للغرائز وتنمية للجدال الذي ربما لا نحتاجه أكثر من حاجتنا إلى الفكر الفلسفي والتطبيقي منه .انظر د.رحيم الساعدي، نقد الفكر البلورالي ، موقع النور http://www.alnoor.se/article.asp?id=216231

شد وجذب او تحد واستجابة بين الطرفين لان القضية ترتبط بالهوية التي لا يجب ان يخسرها احدهم (لو تم التنازل عن بعض اسسها وتفاصيلها) وهي ترتبط بنزاع داخلي يصنعه الذاتية الكبيرة التي يتمتع بها كل شخص ، ولهذا تجد ان من ينظر ويكتب في الكلام والفقه والقانون انما عبر عن استجابة لاحتياج ملته او جماعته والمسالة هنا من زاوية ما ، لا تتعلق بالإسلام فقط بل بالبلدان الاخرى التي لم تنقطع عن الصراع في جوانب الحكم وفلسفة التاريخ اما علم الكلام فان تلك الدول تبتعد عنه الا انها تتجاذب السياسة او الرئاسة بطريقة او باخرى وبصورة ذاتية لا يمكن انكارها .

رابعا : كان يجدر بالتاريخ تبني القيمومة على نفسه وتجاوز دوره التاريخي كوسيلة واداة وان يخرج من دائرة الهيمنة الخارجية لتكون علاقته مع العلوم الاخرى التي منها علم الكلام او العقيدة وهي علاقة افادة واستفادة وليست علاقة تحديد غاية او غرض او نتائج مسبقة ([20]).

خامسا : ان النتائج السلبية لاثار المذهبية في التاريخ قد حرم المسلمين من الوعي التاريخي . فصراع الفرق حدد غاية مسبقة تتعلق بانتصار كل فرقة لرايها والغاء الاخر فتصارعوا ضمن منظومة تاريخ داخل الانسان (الجبر والتفويض) دون الوعي لمشاهدة النتائج من خارج الصراع بنظرة شاملة عامة ([21]). وهو ما ينتمي لفلسفة التاريخ .

سادسا : في القران لا يمكنك غض النظر عن الكم الكبير من الافكار التي لها مساس بفلسفة التاريخ ([22]) وهي تختلط بالاراء الكلامية والفلسفية والاجتماعية

---

[20] - حسن سلهب ، علم الكلام والتاريخ ، 57 .

[21] - حسن سلهب ، علم الكلام والتاريخ ، ص70 .

[22] - يمكن القول بهذا الصدد ، ان ابن خلدون لم يهمل القصص القرآني، وعاقبة كل أمة، كما فصلها الوحي الكريم، بل إننا نراه - في المقدمة وفي العبر - على وعي كامل بالقصص القرآني، والعبر المستخلصة منه، سواء في جانب الرخاء، والنعمة، والأمن، والنصر، وغيرها من ثمار الإيمان، والالتزام بشريعة الله، أم في جانب الترف، والظلم، والانحلال، وغيرها من مظاهر البعد عن الشريعة والكفر بنعمة الله، والعواقب الحتمية

وغيرها ، وقد ركن المسلمون الى علم الكلام ، فعمدوا الى البحث الدقيق والجاد بغية اثبات ما يدافعون عنه ، فكان بمثابة الحاجة التي دفعتهم الى تقديم الكلام على فلسفة التاريخ ولم يكن الدافع لديهم معرفة الافكار التاريخية المهمة في القران فقط ، ويمكن تعليل ذلك بان دولتهم او بلداتهم كانت مترفة الى درجة انهم لا يحتاجون النصح التاريخي او الافكار التاريخية تلك ، او ربما وصفت تلك الأفكار في القران بانها مشبعة بالصعوبة والضبابية او حتى القول بان لا تاريخ مطول لديهم ليكتبوا عنه، وبالتأكيد ان ذلك غير صحيح فالامامة كانت الشغل الشاغل لهم وهي قضية حكم (عند بعضهم) قبل ان تكون عقيدة ، وما حال بين وعيهم المباشر لتاسيس فلسفة تاريخ هو الرغبة الذاتية اكثر من غيرها والصراع من اجل اثبات الذات المعنوية الفكرية والدينية والوجودية . وهذه وجهة نظر سايكلوجية اكثر منها نفسية

سابعا : يتحتم هنا القول بان هناك كتابات مبكرة حول فلسفة التاريخ تمثلت بفكر الامام علي في نهج البلاغة الذي ينشط بموازات الجانب الديني والفقهي والعقائدي لديه . وذلك يعني بان الوعي بالتاريخ والسؤال التاريخي وحكمة التاريخ وجدت قديما في الفكر الاسلامي كما وجدت الاشكالات الكلامية ايضا .

وباستثناء الامام علي (في بداية ظهور الاسلام) فاننا لا نلاحظ اهتماما كبيرا بحكمة التاريخ المفلسفة او التاريخ المنتقد او ذلك الذي نسلط عليه السؤال والاستفهام والتعليل والتفسير والمقارنة وهذا الامر ربما تدراكه المسلمون عندما

الوخيمة - مهما طال الزمن - لهذه السلوكيات الجالبة لغضب الله، والمدمِّرة للحضارة ، بل إنني أرى أن ابن خلدون قاس الدولة (أو الدورة التاريخية) قياسًا كاملاً على عمر الفرد، ومراحل تطوره، على ضوء الآية القرآنية الكريمة: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ [الروم: 54) انظر د.عبد الحليم عويس، الأصول الإسلامية لنظريات ابن خلدون ،شبكة الالوكة http://www.alukah.net ومع هذا نجد من يشير الى ان ابن خلدون يطرح تصورا يقوم على اساس الخضوع للضرورة الطبيعية من جهة والنظام الدوري من جهة اخرى فهو لا يعتقد بان التاريخ تجل للقدرة الالهية انظر حسن سلهب ، علم الكلام والتاريخ ،ص68.

امتدت الفترة الزمنية للحكم الاسلامي وهي الفترة التي يمكن لنا ان نسميها ، فترة التجريب السياسي (الذي يحاول الافلات من القواعد التي اسست عليها دولة المدينة وهي مرحلة الحكم الوراثي) .

ففي زمن الامام علي تبرز افكار عديدة تتصل بحكمة التاريخ كما يدونها الكتاب الاستراتيجي (نهج البلاغة) ([23]) ومنها :

اثر الحمية (تتصل بالعصبية والتنظيير المعاكس لكلمة الامام علي) في تغيير مصير الامم الماضية (خطبة 190).

حديث عن سنن التاريخ (خطبة 190)

دورانية التاريخ (الدهر) خطبة 157

القران مصدر الاحاديث التاريخية خطبة 158

دعوة لمنهج معايشة الماضي (كتاب 31)

الرخاء وطول الحكم سبب نهاية الطغاة خطبة 88

والكثير من الافكار المتصلة بفلسفة التاريخ والاجتماع والاقتصاد والسياسة وفي كتاب العبر لابن خلدون تضمينات كثيرة لاراء الامام علي .

علم الكلام اساس من اسس فلسفة التاريخ الاسلامية

(قراءة في الافتراض)

يمكن القول ان فلسفة التاريخ هي معادلة تتكون من (علم الاجتماع - الفلسفة - السياسية - التاريخ المعالج بالفلسفة) وهذه التركيبة هي المعيار الذي يجعلنا نطلق على كتابة ما بانها فلسفة تاريخ ، وبالتالي فان قياس العناصر التي وجدت من هذه المعادلة سيرشدنا بوضوح الى ان ثنائية الفلسفة والسياسة وجدت في علم الكلام اما التاريخ والاجتماع فقد استبعدا بطريقة او باخرى ، لانهما لم يكونا الغاية التي كان ينشدها علم الكلام الذي شغل بغاية اثبات اساسيات دواخل الانسان (فعل

---

[23]- حول هذا الموضوع ينظر محمد عبده ، شرح نهج البلاغة للشريف الرضي وهو المختار من كلمات الامام علي ، 4 اجزاء ، بيروت .

الانسان وتنوعاته) ، ومع هذا فقد كان عاملي السياسة والفلسفة هما الحافز او مادة التغذية التدريجية لفلسفة التاريخ فيها والتي اكتملت على يد ابن خلدون

وحول مرجعية فلسفة التاريخ لعلم الكلام يمكننا ملاحظة مسارين واضحين بهذا الخصوص .

الاول :ينطلق من الفقه والكلام ويتحرك عبر المؤرخين ثم بتقادم الزمن وب(تكامل المؤرخ وتحوله الى السؤال) نصل الى المؤرخ الفيلسوف وكان هناك عدد من النماذج مختلفي المهارة والخصوبة والسؤال والمنهج والتبويب والقوة في فلسفة التاريخ ربما كان منهم المسعودي واخوان الصفا وابن خلدون .

والثاني : ينجم عن اثر وفاعلية مفهومي حرية الارادة الكلامية ومفهوم الامامة الذين قادا الى الحراك السياسي والاجتماعي خلال مدة طويلة في تاريخ الاسلام مما ولد مادة كافية لان تاسس مفهوم فلسفة التاريخ . فيصح القول ان محرك فلسفة التاريخ التي ظهرت في الاسلام كانت جوانبه علم الكلام والفقه والامامة وصراعاتها التي شكلت اساسا من الصراع السياسي وهما للسيطرة على المستقبل وبالتالي فان كثرة تجريب اساليب الحكم قاد الى تراكم فكري للتظير لفلسفة التاريخ بينما برز الجانب الفقهي كمساعد لعلم الكلام بدعم التنظير ومن خلال اليات تخص تمحيص الروايات والرجال وكلاهما اعتمد التدوين والمساهمة في تحريك التاريخ بالوجهة التي ارادها وقاتل من اجلها وايضا اعتمد على التنظير في اوليات الفعل الانساني وهو الاساس الاول لتحريك التاريخ والذي قادته دائما الافكار السياسية التي جذرت له بدا من تنظيرات الفقهاء او اشباههم للزج ببعض المسلمين ضد البعض الاخر وبالتالي فان النتيجة بعد صراع طويل كانت السؤال (الدين- سياسي) حول مرتكب الكبيرة .

ان طرح عدد من الاسئلة التي تنتمي الى فلسفة تاريخ الكلام ،بامكانها تقديم بعض التفسير لتلك القضية وهي :

هل ان الفترات التي تعطل بها علم الكلام او خفت وتيرته قادت الى توجه الدول الى طرق تقترب من بناء الدولة لا الجدل الديني الاجتماعي؟ .

هل الفرق الكلامية ظهرت بفعل تنظير كلامي ام سياسي ، هل هناك حتمية بنهاية الفرق الكلامية بناء على رايها وهل كان انبثاق القرامطة الفاطميون والدروز من الاسماعيلية مثلا بفعل تنظير كلامي ام سياسي .

هل عمل الكلام تكميم افواه الاراء المعارضة وبالتالي تسيير التاريخ بطريق الحاكم المستبد وقمع الحريات ؟

هل استثمر علم الكلام على مستوى التاريخ بمنهج انتاج حتميات معطلة لمسيرة الانسان وحريته ؟

هل عمل علم الكلام على صناعة او دعم البطل في التاريخ ؟سواء اكان ذلك البطل السالب ام الموجب ؟

ايمكننا عد علم الكلام اواللاهوت او الجدل الديني اشبه بعامل التحريض على اثارة المجتمعات التي ينتشر بها ؟ ام انه العامل الذي يرسخ ثبات الجماعات الوثوقية التي لا تفرط بإيمانها ؟

هل يوجد اختلاف بين الحتمية من الزاوية التاريخية والحتمية الدينية التي تستند على علم الكلام ؟.

هل امكننا عد علم الكلام اشبه بالترف الفكري او النفسي لدى الامم وبالتالي حالة من التفريغ الشعبي او الامي او الحضاري لكثير من الرواسب الفكرية والعقدية والذاتية

هل خضع علم الكلام لتحد واستجابة سببها الدولة ام العكس .

بالنسبة الى جانب لاهوتي مشابه للكلام الاسلامي ، اهي المصادفة ان ينظر اللاهوتي أوغسطين لفلسفة الدولة ولفلسفة التاريخ ام ان افكاره اللاهوتية في العناية الإلهية هي من قاده الى افكار الدولة المفترضة ؟ فاوغسطين عندما أراد سيطرة الكنيسة على الدولة كانت فكرته عن مدينة الله ومدينة الأرض ثم سخر الحضارات

القديمة لتلائم هاتين المدينتين ([24]) والكنيسة هنا تعني اللاهوت المسيحي او الافكار الوثوقية الدينية التي ما تخلى عنها اوغسطين ابدا . بل ودمج الفكر اللاهوتي بفلسفة التاريخ التي نظر لها في العناية الالهية .

ايضا هناك بعض الاسئلة التي تنتمي الى مفهوم فلسفة تاريخ علم الكلام ([25]) وهي :

تحدث عن ماهية اسباب تفكك وبناء الفرق الدينية. والظروف والاليات التي تبني تلك الفرق ، وما الغايات والاهداف لتلك الفرق وهل يمكن ان تتقاطع ام تتلاقى تلك الغايات او بعضها ؟ مع السؤال عن اختفاء وانزواء بعض الفرق من دائرة التاريخ واستمرار بعضها . وايضا كيف يمكننا التمييز بين الذاتي والموضوعي في حواريات الفرق الاسلامي ، بين المنهجي والعشوائي وبين المختلط بالاهواء من الافكار وبين الاصدق والاقرب للحق والمنطق .

اننا من خلال اعادة قراءتنا لعلم الكلام من زاوية تطبيقية نعرف مدى بعد او قرب فلسفة التاريخ من علم الكلام فلو افترضنا مفهوم علم الكلام التطبيقي في

24- د. رأفت غنيمي الشيخ، فلسفة التاريخ، القاهرة، دار الثقافة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1987م،ص18 .

25 - ان الغاية من التلويح بمصطلح فلسفة تاريخ علم الكلام ، انما هي دعوة لتناول علم الكلام بمنهج فلسفة التاريخ ،والمعروف ان الفرق الكلامية عملت على ترويج فلسفة تاريخ الكلام عند الحديث بطريقة تحليلية فلسفية مباشرة بتداول اراء الفرق الماضية ومقارنتها ونقدها وتقويمها ، اما وصفها بانها فلسفة تاريخ كلام فيعنى بها عملية حملت توجهين الاول هو التعامل مع الافكار الدينية وتحليل مباشرة والثاني مقارنتها مع غيرها ومعرفة اسبابها وغاياتها وتقديم اضدادها والهدف من ذك اطمئنان الفرد لصحة ما يطرحه من افكار كلامية دينية لكي يستمر بتثبيت الافكار التي سوف تستمر بمثابة قاعدة يمكن السير وفقها فيما بعد .

وتعتمد على اليات السؤال الموجه الى النص والمقارنة والتحليل كما تعتمد على مناهج مختلفة غايتها الوصول الى فهم مناسب و دمج الاسس الخاصة بفلسفة التاريخ بعدها منهج للبحث والتحليل والنقد بالاسس الخاصة بعلم الكلام . و القضية اقرب لفلسفة تاريخ الدين منها الى علم اللاهوت الاجتماعي لانها قراءة للماضي والحاضر والمستقبل ولان الغاية يجب ان تكون تدارك الاخطاء وفهم الحاضر والمستقبل وفق تحليل واعادة فهم الماضي .

صلب موضوعات علم الكلام الجديد مثلا لتوصلنا الى افق جديد ومختلف لقضايا الكلام الحديثة ، وبالتالي تحريره على ارض الواقع ، لان اطار التنظير في السابق بقي وبشكل خاص بداخل مفهومي الرغبة والعقل فتقاتلت الفرق بطريقة ابداع عقلي نحو الافكار الميتافيزقية او الافتراضية او التنظيرية وبصورة تقترب من تشغيل الغرائز لان الصراع كان صراعا لتثبيت او اثبات الهوية (هوية الفرد - الطائفة - الامة) وكل ذلك يقود الى بقاء الطائفة مع بقاء (التبرير - البراهين - الحجج) ومنه الى خلق الاعلام الجاذب للمؤمنين بافكار هذه الفرقة او تلك او العكس ، فكان الصراع في كثير من الاحيان هو صراع الخوف من الخسارة او صراع سباق الذوات او سباق صراع الذوات او صراع استنكار الهزيمة ، واظن بان هذا الاستبطان النفسي لقضية علم الكلام لا يقلل من جدية الكثير من اللذين خاضوا في علم الكلام في السابق بدوافع مهنية مجردة او تحليلة .

اسباب افتراض الفقه وعلم الكلام كاساس لفلسفة الاجتماع والتاريخ الاسلامي

يمكن القول ان الفلاسفة المسلمين كالكندي والفارابي وابن سينا لم يتطرقوا الى فلسفة التاريخ بشكل جاد وقريب للتخصص ، وهذا يعني اتباعهم لخطى اليونان في تناول المباحث الفلسفة والميتافيزيقة وابتعادهم عن الفروع الفلسفية (ومنها فلسفة التاريخ) التي لم تاخذ حيزها في وقتها على مستوى المصطلح او التظير اوالمنهج و المفهوم . وذلك يعد مصدر قوة لفرضية ان فلسفة التاريخ والاجتماع الاسلامي بدات من منظومة علم الكلام ، حتى اننا لم نعرف عن ابن خلدون استغراقه بالفلسفة فهو لم يكتب شيئا مهما في الفلسفة او فلسفة التاريخ سوى كتابه العبر .

لم يهتم الفلاسفة المسلمون بانهيارات الدول والحكام مع انهم كتبوا كثيرا في الجانب السياسي ، ولم يتطرقوا الى معالجة هذه المسالة الا من زاوية الشروط الخاصة بالحاكم وهو توجه مستقبلي بالقياس الى اعادة قراءة الماضي الذي اهملوه وكان يشير الى الاسباب التي تؤدي الى فشل الدول . وكان دافعه الثقافة الخاصة بمفهوم الامامة الكلامية .

ان الفلسفة اليونانية على نخامتها وقوتها لم تجب لنا اشارات قوية تهتم بفلسفة التاريخ مع انها كثيرا ما تتناول الافكار (الحكواتية) الماطرة بالاسطورة والتاريخ القديم ويضاف لذلك الباع واليد السياسية والعسكرية الطولى في التاثير في الاحداث السياسية والتاريخية . لذلك لا اثر يذكر لليونان في فلسفة الاجتماع والتاريخ الاسلامية ، واذا كان الحضارة الاسلامية قد نحتت هذين المفهومين فان علم الكلام لا يمت ايضا الى اليونان بصلة .

هناك ما يوصلنا الى مفهوم يتصل بهذه القضية منها ان الافكار هي محرك الفرق وان الفرق هي تحركة الامة والامة هي جزء من دورانية التاريخ ، وان ما يقع على الامة والحضارة من الاطوار والتبدل ايضا يقع على الفرق الدينية

حرية الإرادة والامامة محركا فلسفة التاريخ الاسلامي

الجبر والاختيار

في علاقة علم الكلام بفلسفة التاريخ جانب تطبيقي لم ينظر له ، على انه فلسفة تاريخ تمثل بتاثير مفهوم الامامة السياسي ومفهوم الارادة وما اشتق عنها من الجبر والاختيار وهذان الجانبان اثرا في عملية تداول التاريخ فيما بعد ، وجانب تنظيري قام المفكرون بتناوله على انه فكر ديني او عقائدي او فلسفة او فقه ولم ينظر له ايضا على اساس انه فلسفة تاريخ وهو يتجه كذلك نحو قضية الامامة السياسية ومفهوم الارادة التي تعد بنية ارتكازية لسلوك وفعل الفرد الفاعل في التاريخ والمؤثر في فعل الامة التي يتحول فعلها الى مادة للتاريخ .

ومن المهم مناقشة قضية حرية الارادة او الاختيار الخاص بالانسان ، والتي تتداخل مع بعض تطبيقات محركات التاريخ واقصد به الانسان وتفرعاته سواء كان بطلا محركا للتاريخ ام جزء من محرك ام باعتبار امتلاكه الوعي او بنحو تحديه واستجابته للاشياء ، فعندما يوجه لي السؤال التالي ، كيف يمكن لله ان يكون محركا للتاريخ وما دور الانسان هنا اذا كانت القوة المطلقة هي من يحرك الاشياء

والاحداث ، وهو استفسار ربما يبنى على فهم ان الله محض ميتافيزيقا ولا يتدخل بشكل او باخر بعده محركا للتاريخ ؟

وسيكون الجواب وفق العودة لخارطة علم الكلام الإسلامية التي تنظر لثلاث حالات لاخراج الفعل الانساني او تحدث عن ثلاثة خيارات منها الجبرية، التي تطلق في تاريخ الفكر الإسلاميعلى طائفة من المسلمين قالت بالجبر، أي بأن الإنسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة وأنه عاجز عن أن يعمل غير ما عمل لأن الله قدر عليه أعماله تقديرا.وأول الجبرية جهم بن صفوان الذي تنسب إليه الفرقة الجهمية، وقد توفي عام 745 للميلاد، أما القدرية، في تاريخ الفكر الإسلامي، فاسم يطلق على المسلمين الذين قالوا بحرية الإرادة وبأن الإنسان مسؤول عما يفعل، ويطلق اسم القدرية، أكثر ما يطلق، على المعتزلة، وقد دعوا بالقدرية لأنهم آمنوا بأن للإنسان قدرة على أعماله لا لأنهم قالوا بأن القدر يحكم أعمال الإنسان مما يدل على ذلك ظاهر التسمية ([26])

لقد قررت المعتزلة بان الإنسان خالق لأفعاله فأفعال العباد كلها مخلوقات العباد والعبد هو الذي يخلق فعل نفسه خيرا ام شرا وبرروا بان بعض افعال الانسان هي شر والله لا يصدر عنه الشر كما يقول واصل بن عطاء ، ويعرف الشهرستاني الجبر بانه نفي الفعل عن العبد واضافته الى الرب تعالى ويميز بين ثلاث انواع للجبر ، كما يقرر اصحاب الجبر ان الانسان لا قدرة له في توجيه مجرى الحوادث في الكون وهم خاضعين للارادة العليا الالهية السارية في الوجود غير مسلمين بوجود ارادة

---

[26] - ان فكرة الاختيار التي طرحها غيلان الدمشقي ومعبد الجهني استثمرت سياسيا على يد الأمويين بصورة اخرى هي الجبر الذي يبرر للحاكم الظلم وهذا التوظيف ساهم بشكل وبآخر فيما بعد بصياغة تاريخ فلسف له في حينها ونظر له ،الا انه لم يحلل بعد ذلك على انه فلسفة تاريخ يتوجب تحليل مفاصلها ،مع ان هذه الاحداث الخاطئة وغيرها الهمت وحفزت اخوان الصفا وابن خلدون بل ومجمل الكتّاب في بدايات التاريخ السياسي على تدارك او تبويب الافكار السياسية التي انطلقت من جذر كلامي .

حرة وهذا تعطيل للتاثير - كما يقول ابو الوفا الغنيمي التفتازاني - في التاريخ وحوادثه والغاء للتغير ([27])

وفي جانب اخر نجد الخوارج بقولهم ان لا حكم الا لله يعني ان الله وحده هو المحرك الاوحد للتاريخ ، بينا ان هذه الكلمة في الحقيقة تمثل السفسطة الدينية ، وهي اولا بنيت على مفهوم ان كل ما يراه الخوارج (الانسان) هو الحقيقة المطلقة ، لذا يمكن عد الخوارج اول من سفسط في الاسلام .
وتعتقد القدرية بان المحرك والمؤثر في الاشياء والتاريخ هو العبد فهو قادر وخالق لافعاله خيرها وشرها مستحق على ما يفعله من الثواب اوالعقاب .
ولا يخفى ان القدرية والجبرية متقابلتان تقابل التضاد (كما يقول الشهرستاني)فالجبرية تنفي حقيقة الفعل الصادر عن العبد ، ومنها جبرية خالصة وهي التي لا تثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل واخرى هي المتوسطة التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة واخيرا تلك التي تثبت قدرة تحدث اثرا في الفعل وسمي ذلك كسبا .
وقررت الاشعرية ان الفاعل الحقيقي هو الله (وذلك يعني ان محرك التاريخ هو الله بشكل مباشر) وما الانسان الا مكتسب الفعل الذي احدثه الله ولا يصح تسمية الانسان بالفاعل بل بالكاسب والاستطاعة عند الاشعري مصاحبة للفعل لانها عنده عرض لا يبقى زمانيين ومن ثم فان الله يخلق الاستطاعة في العبد عند قيامه بالفعل .
ان ما اردته من هذا الاستعراض يمكن ان اقننه بتصورين الاول هو ان القائل بمرجعية الفعل الانساني يشير الى ان مصدر ذلك الفعل هو المحرك الاساسي للتاريخ سواء اقال بهذا الراي ام لم يقل ، والامر الاخر وددت التنويه الى اهمية ذلك

---
27 - د.عبد الحكيم عبد السلام العبد ، علم الكلام في الاسلام والفلسفة قضية محورية بين التقد والبلاغة واصول الفقه ، مصر ، 1991م ، ص143-144.

الفعل الانساني الذي اطر له علم الكلام الاراء والافكار لكي يترك اثرا فيما بعد في الفلسفة والتاريخ والسياسة والحضارة على حد سواء .

وبالحديث عن زاوية اخرة تتعلق بفعل الانسان ،فهناك فعل يسير وفق المنزلة بين المنزلتين فان الفعل الانساني بحساب فلسفة التاريخ هنا يتوزع على قدرتين الأولى هي لله والثانية هي للانسان و تلك الاشكالية حلت وفق فلسفة الكلام الثنائية (المنزلتين التي اسس لها جعفر الصادق وترجع جذورها الى الامام علي)، على اعتبار ان النتائج انما تخص الانسان ، فهو مسؤول عن مخرجاته وسلوكياته وبالتالي فلا شريك له في فعله السيء ، اما الفعل الخير فمرجعه الى الاية القرانية 78 من سورة النساء (وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله الى قوله تعالى ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك . وهذا ما تعلق بالداخل الانساني من الفعل اما الجانب الاخر من الثنائية نخص الخارج من فعل الانسان ، واهمية الفعل الانساني هنا يتمثل بعده جزءا من سلوك وفعل البطل او الفاعل او المحرك في فلسفة التاريخ

محاور التقاء علم الكلام وفلسفة التاريخ

الامامة والسياسة

مع اهتمام المسلمين بالإمامة والجانب السياسي التطبيقي فيها فانهم لم يهتموا بصورة مباشرة ومركزة بالتاريخ وأخطائه ، ربما لانهم لم يخلفوا تاريخا طويلا يمكن النظر اليه وتدوين او تعداد او مراجعة أخطائه ، فالوعي التاريخي الذي بدا مع كتابات إخوان الصفا وأصحاب الاحكام السلطانية ربما كان سببه عملية تشغيل الأفكار نحو إخفاقات الدول والإمارات والمدن التي تعددت بسبب مشاريع إقامتها هذه الجهة او تلك لبناء دولة او حكم معين بعد صراع مع الافكار العقائدية والكلامية ،

واذا قلنا بان علم الكلام بدا مع مفهوم الامامة (وهو الراي الراجح لدي) لا مرتكب الكبيرة ولا مع مفهوم كلام الله فان علم الكلام على هذا الاساس بدا

مع حياة النبي الاكرم ومنها لان مسالة الامامة او الاشكالات الدينية طرحت في وقت الرسول الاكرم لمفاهيم بحثت عن اسئلة عديدة منها (مكان الله ، العذاب ، مكان الجنة ، العدل ، التوحيد، الامامة ، التعامل مع الاديان الاخرى) ، والعديد من المسائل الجوهرية الدينية .

ان المفهوم السياسي الذي طالب به الخوارج وقاعدة لا حكم الا لله اثر على سير التاريخ الاسلامي وكلا المتصارعين حول مفهوم الامامة ارادا التحضير للمستقبل ، وقبل ذلك لم يكن للفئات المختلفة قبل الاسلام الطموح الواضح بتعديل المستقبل .

لقد اخذ الكلام الاسلامي دورا سجاليا بين مجموعات مختلفة تدافع عن ذاتها وبالتالي نلحظ الانكماش نحو الذات ، ووحدهم الذين لم يتغلفوا بعلم الكلام ويقيدوا به ويجعلوه صنعتهم الوحيدة مثلما حدث مع بعض الفلاسفة واخوان الصفا وبعض المؤرخين ، فان هؤلاء- مع كونهم خاضوا الحديث في علم الكلام - قد افلتوا من جدل الافكار الى تميتها خارج دائرة الكلام .

وصل نتيجة هيمنة الكلام على الساحة الفكرية الاسلامية لمدة تجاوزت القرن ، تحول الشان السياسي الى شان عام وكان هناك تعارض بين اتجاهين للحكم (فئة العشيرة) و (الحكم للجميع) والمزج التام بين الديني والسياسي فاصبح الحق السياسي حقا الهيا واصبح هناك حاجب منع المسلمين من الانتباه الى نسبية ممارستهم السياسية فولد عسر تقبل فكرة بشرية الحكم ووضعانية النظام السياسي واخضاع حياتهم لهذه الفكرة ثم حصل انشطار في الوعي السياسي بين الواقع والمثال ([28]) .

[28] - محمد ابو هلال ، جدل السياسة والدين والمعرفة ، دار جداول ، بيروت ، 2011م ، ص106.ويميز في ص180 بين نوعين من الفرق هما الفرقة الحزب والفرقة المدرسة فالاخيرة تمثل بالمعتزلة والشيعة والسنة وهي فرق جعلت هدفها صياغة تصور عام للدين والوجود والمجتمع.

وباعتباره ينتمي الى الفكر السياسي ايضا والى منظومة الدولة وادارة الحكم فان أهمية مفهوم الامامة تشكل بشكل كبير في التاريخين الكلامي والسياسي الاسلامي ، ولعل الامامة تبدو محركا ثابتا للتاريخ الاسلامي ، فما نشهده من تاثيرات علم الكلام وتنظيراته الخاصة بالامامة يرشدنا الى حجم الاستماته التي ينشط بتبنيها المدافعون عنها ، وبغض النظر عن الداوفع التي يحملها المتبنون للدفاع عن قضية الامامة الا ان الصورة العامة لا تترك مجالا للشك بان الدفاع والتنظير والتطبيق الخاص بها انما هو سياسي بامتياز وذلك يعني ، الحفاظ على الدين من خلال القوة السياسية .

وهو ما يؤكده محمد عابد الجابريمن ان الكلام في حقيقته التاريخية لم يكن مجرد كلام في العقيدة ، بل كان ممارسة للسياسة في الدين ([29]). حتى ان علم الكلام القديم كان نتاجا لتفاعل ثلاث مقومات هي العقائد - المعترك السياسي والعقل الفلسفي او على الاقل النظري ([30])

اما مدى علاقتها بفلسفة التاريخ ، فيوضحه فهم ان الامامة هي مفهوم اكبر من الدولة وباعتبارها المحرك الاساسي للجماعات بجانبها القتالي او الحواري او الجدلي ،فقد غيرت الكثير من المصائر او القوالب الاجتماعية على مدى التاريخ الاسلامي او اللاهوتي (اذا ما ناقشنا الاراء المسيحية او اليهودية وتناحراتها) ، فهي بارتباطها بالفقه او العقائد او الكلام اثرت على المجتمع الذي تنتمي اليه بشكل تدريجي ولا اوضح من الضغوطات العقائدية المرتبطة بالتداول الكلامي الاسلامي ومنها مثلا التحولات التي حدث في المذهب السني الى الشيعي وبالعكس .

ويمكن القياس على دائرة التاثير الخاص باستعراض مفهوم الامامة ، ذلك المفهوم الذي يستمد قوته من التطبيق الذي يعمد اليه الطالبون له ،فالخوارج قاتلوا بالسيف من اجل الافكار العقائدية ليتركوا اثرا فيما بعد ، وتداول الشيعة والمعتزلة والاشعرية ايضا مفهوم الامامة بتناولين احدهما ينتمي الى الفهم الكلامي والاخر

---

29 - محمد عابد الجابري ، تكوين العقل العربي ، ط1، دار الطليعة ، بيروت ،1984 ،ص347 .

30 - د.يمنى طريف الخولي ، الطبيعيات في علم الكلام ، من الماضي الى المستقبل ، القاهرة ،بلا ، ص25.

السياسي ،وقد قاتل هذان المفهومان جنبا الى جنب لفترة طويلة وكان للدور الكلامي الجانب الاقوى في توضيح الافكار وتثبيتها على ارض الواقع ، وربما ادعى ان ما جعل المعتزلة تختفي او تتشتت من ارض الواقع ، هو انها لم تدخل في مماحكة تصل الى حد القتال من اجل ارائها كما فعل الشيعة والاشاعرة والخوارج وغيرهم ، وهو الامر الذي يفسر سبب استمرارهم الى هذه اللحظة . هنا يتبين ان الامامة بوصفها محورا مفصليا في علم الكلام قادت الى تغييرات مختلفة في الدولة الاسلامية من الجانبين الكلامي والسياسي والفكري بل والنفسي والاجتماعي .

ويحدثنا التاريخ ان الموقف التسلطي كان سائدا في فرض الاراء الكلامية وتصنيف أي محاولة لا تلتقي مع الموقف الإيديولوجي للسلطة ووعاظها ابتداعا ومروقا وانشقاقا على وحدة الامة كما في نص القادر بالله (381هـ - 442هـ) (الاعتقاد القادري) واستتابة المعتزلة والنهي عن الاعتزال والمناظرة والتدريس ([31]).وهو تدخل سياسي بفعل سلطة الامامة والسياسة التي تستمد قوتها من تنظيرات كلامية عقائدية .

و كان المرجئة لا يهتمون لفسق الحكام وان الحاكم مهما تعدد ذنوبه يبقى على مقامه وطاعته واجبة وهذا يفسر سبب حماية خلفاء الجور للمرجئة .وقد عمل المعتزلة على تحليل اسلوب عمر وعلي السياسي والمقارنة بينهما ، واباحة نقد الصحابة ودراسة أعمالهم ([32])

وبالإمكان اكتشاف ان الخوارج والسلفية لا يعيرون اهمية للتاريخ وقد نوه تيزيني الى ان الماضوية التي ترفض الحاضر فضلا عن المستقبل تقف في مربع واحد مع

---

[31]-د.حسن حنفي ، الاجتهاد الكلامي – مناهج ورؤى متنوعة في الكلام الجديد(ضمن قضايا اسلامية معاصرة) ،ص7 .

[32]-مرتضى مطهري ، العرفان والكلام ، تعريب علي الخازم ، الدار الاسلامية ، بيروت ،1413هـ- 1992م ،ص 30 -35 .

الأسطورة التي ترفض التاريخ باسره ، فالاسطوره دائما فوق التاريخ واللاتاريخية هي الاساس المكين للنزعة السلفية([33]) .

واذا استمر الحديث عن الامامة فان من مبادئ المعتزلة السياسية ان الامام اذا جار ولم تجد معه النصيحة فانه يجب على الناس الخروج عليه اذا توافرت لهم الامكان والقدرة ([34]) .

ويورد الشهرستاني صورة لاثر واهمية الامامة والسياسة في مذاهب الكلام وبالتالي هو حديث عن اثرها في الدولة والتاريخ قائلا ، ولكل فرقة مقالة وكتب صنفوها ودولة عاونتهم وصولة قارعتهم كما في دور المامون بتشجيع المعتزلة والمتوكل بنصرة اعداء المعتزلة والمهدي بن تومرت صاحب الدولة الموحدية في نشر المذهب الاشعري بشمال افريقيا والوزير نظام الملك بتبني الدولة السلجوقية للمذهب الاشعري وتحولت جامعة الازهر التي تبناها الفاطميون الى المذهب الاشعري ([35]).

[33] - د.يمنى طريف الخولي ، الطبيعيات في علم الكلام ، من الماضي الى المستقبل ، القاهرة ،بلا ، ص25.

[34]- احمد شوقي العمرجي ، المعتزلة في بغداد واثرهم في الحياة الفكرية والسياسية ، مكتبة مدبولي ، ط1 ، مصر ، 2000م ،ص88 .

[35] - د.شافية صديق ، علم الكلام الاساس والتاسيس (مقاربة متحيزة) ، مجلة السراط للبحوث والدراسات المقارنة ، كلية العلوم الانسانية ، جامعة الجزائر، العدد26،السنة 2013م . وتورد عن الشهرستاني قوله ، واعظم خلاف بين الامة هو خلاف الامامة اذ ما سل سيف في الاسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الامامة في كل مكان .

يتضح في المفهوم الكلامي ان الامامة هي المحور الرئيس والسياسي الذي تدرج في الحديث الكلامي حتى وصل الى تنظيرات المهتمين بالملك واداراته وبالتالي الحديث عن التنوعات السياسية والاختلافات الاجتماعية والانقسامات بين الفرق وعلل ذلك ، وكل هذا سيكون بمرور الوقت هو المادة الحية التي تسلط عليها الاسئلة التاريخية – الفلسفية سيما عند حديث ابن خلدون عن ادوار الحكم وتلافي اخطاء سقوط الحكم والحكام ، وهو المؤرخ الذي استخدم الجانب شبه التطبيقي في الفلسفة واستند على تراث فقهي وكلامي وسياسي ، فاستعرض التاريخ وفق الفهم الفلسفي والتاثير الكلامي ، واظن بانه يصح القول ان فلسفة التاريخ هي نتاج عربي إسلامي بدا من مفهوم ومادة واحداث الامامة والاجتماع والسياسة وادارة الحكم الذي يقرا بالتاريخ و العبر وكل ذلك نراه في النصوص القرانية والسنن التي وجدت في القران ايضا وان غلفت بأسس دينية فهي قريبة من المشكلة الاجتماعية والسياسة للامة على حد سواء .

القران الكريم
محمد عبده ،، شرح نهج البلاغة المجموع من خطب الامام علي للشريف الرضي ،4اجزاء ، بيروت .

حسن حنفي ومجموعة باحثين ، الاجتهاد الكلامي -مناهج ورؤى متنوعة في الكلام الجديد (ضمن قضايا إسلامية معاصرة) ، ، إعداد عبد الجبار الرفاعي ،دار الهادي
مهدي ملكيان ، الكلام الجديد في ايران ، ضمن الاجتهاد الكلامي.
محمد ابو هلال ، جدل السياسة والدين والمعرفة ، دار جداول ، بيروت ، 2011م .
عبد الجبار الرفاعي، مدخل تاريخي الى علم الكلام الجديد ،صحيفة المدى العراقية ،العدد 3221 ، 2014م.
عبد الجبار الرفاعي، صحيفة الوسط البحرينية، العدد 98، 2002 .
د.حسن سلهب ، علم الكلام والتاريخ - إشكالية العقيدة في الكتابة التاريخية الإسلامية ، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي ، ط1،بيروت،2011م .
فان اس ، علم الكلام والمجتمع في القرنيين الثاني والثالث للهجرة ،ط1، الجزء الاول ، ترجمة د.سالمة صالح ، منشورات الجمل ، بيروت ، 2008.
وجيه كوثراني ،تاريخ التأريخ اتجاهات - مدارس - مناهج،المركز العربي للابحاث والدراسات السياسية، بيروت ، 2012 .
د.رحيم الساعدي ، نقد الفكر البلورالي موقع النور http://www.alnoor.se
د.عبد الحليم عويس، الأصول الإسلامية لنظريات ابن خلدون ،شبكة الالوكة http://www.alukah.net
د. رأفت غنيمي الشيخ، فلسفة التاريخ، القاهرة، دار الثقافة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1987م .
د.عبد الحكيم عبد السلام العبد ، علم الكلام في الاسلام والفلسفة قضية محورية بين النقد والبلاغة واصول الفقه ، مصر ، 1991م .
محمد عابد الجابري ، تكوين العقل العربي ، ط1، دار الطليعة ، بيروت ،1984 .
مرتضى مطهري ، العرفان والكلام ، تعريب علي الحازم ، الدار الاسلامية ، بيروت ،1413هـ- 1992م .

د.يمنى طريف الخولي ، الطبيعيات في علم الكلام ، من الماضي الى المستقبل ، القاهرة ،بلا ،
احمد شوقي العمرجي ، المعتزلة في بغداد واثرهم في الحياة الفكرية والسياسية ، مكتبة مدبولي ، ط1 ، مصر ، 2000م .
د.شافية صديق ، علم الكلام الاساس والتاسيس (مقاربة متحيزة) ، مجلة السراط للبحوث والدراسات المقارنة ، كلية العلوم الانسانية ، جامعة الجزائر، العدد26،السنة 2013م .